الاشـــعاع

للأســـتاذ احمد أمين

كتب أخى الدكتور احمد زكى فى مجلة الرسالة مقالا ممتعا فى الأشعاع فى « باب العلوم » تكلم فيه عن اشعاع الشمعة والنجوم والشمس والأشعاع اللاسلكى وموجات الضوء واختلافها ، فأوحت مقالته الىّ معانى فى الأشعاع النفسى .

ان للنفوس والعقول اشعاعات لا تقل جمالا عن اشعاعات النجوم والكواكب ، نشعر بها وقد لا نستطيع التعبير عنها ، وهى أشد غموضا وتعقدا من الأشعاع الحسى ، وهى مختلفة أكثر من الاختلاف بين أشعة الألوان من حمراء وبنفسجية وتحت الحمراء وفوق البنفسجية وما بين ذلك ، وهى مختلفة فى القوة أشد من اختلاف المصابيح الكهربائية ، فلئن كانت قوة المصباح شمعة أو شمعتين أو ألفا أو ألفين فللنفوس قوى تختلف الى مالا نهاية له صغرا وضآلة ، والى مالا نهاية له عظمة وسناء

لعلك تشعر معى أنك ترى الرجل أو تحادثه أو تجالسه أو تسمع لمحاضرته فيشع عليك نوعا من الاشعاع يخالف الآخر قد تحسن التعبير عنه وقد لا تحسن ، فهذا يشع عليك سرورا وأريحية واطمئنانا ، وهذا يشع حزنا ووجدا ورقة وحنانا ، وذاك يشع هيبة وجلالا ووقارا ، وآخر يشع ضعة وذلة وهوانا ، وقد تحس من رجل بنوع من الأشعة تدركه وتستطعمه ، ولكنك لا تستطيع وصفه كما اذا أكلت كمثرى وتذوقتها وأردت أن تصف طعمها لمن لم يذقها -

فى الناس من اذا جالسته أشع عليك نورا أضاء لك ما بين جوانبك فأدركت نفسك ، وأشع نورا على العالم الذى حولك فتبينته وعرفت محاسنه ومساوئه ، وأدركت مكانك منه ، ورأيت كل شىء حولك صافيا بينا كأنك تنظر اليه من « مصباح » المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار »

وفى الناس من يجالسك فتتلقى منه أشعة مظلمة تنقبض لها نفسك وتظلم جوانبها وتحس بميل الى الفرار منها ، وتتنفس الصعداء اذا بعدت عنها ونجوت من ظلامها وخرجت الى النور .

قديما قالوا : « ان درة عمر أهيب من سيف الحجاج » ذلك لأن عصا عمر كان معها يد عمر ومعها نفس عمر ، وهى تشع جلالا وعظمة وتخضع أمام أشعتها نفوس الجبابرة ، ويحس كل من وقعت عليه هذه الأشعة أنها صادرة من مستودع قوى دونه المصباح الكهربائى ، البالغ ما وصل اليه العلم من القوة ، وأما سيف الحجاج فمعه نفس الحجاج ، وهى تشع من غير شك قوة ، ولكنها قوة على الجسم لا على الروح ، قوة تخاف وترهب ولكن لا تحترم ولا تحب ، أشعة عمر كانت تطاع سرا وعلنا ، وأشعة الحجاج تطاع علنا لا سرا ، لذلك كفت عمر عصاه ، ولم يغن الحجاج سيفه

هذا الاشعاع هو السر فى انك تلقى عظيما فيملؤك أثرا ويملؤك قوة ، بهيئته ، بنبرات صوته ، بطريقة تعبيره ، بنظراته ، بأشاراته ، بهزة رأسه ، بحركة يديه ، فكان فى كل عمل من هذه الاعمال يوصل بينك وبينه تيارا كهربائيا قويا يهزك هزا عنيفا ، قد لا يحدثك طويلا ، وقد لا يكون لكلامه فى الواقع قيمة ذاتية ، ولكنه يوقظ نفسك ويحيى روحك ، وتبقى رنات كلماته فى الأذن الايام والليالى ، تعمل عملها فى هدوء حينا وعنف حينا ، وأصدقك أنى لقيت عظيما من هذا النوع يوما فخرجت من عنده مملوءا حماسة وقوة وحياة ، حتى اذا بلغت الى محطة الترام لأركبه الى مسافة بعيدة عفت الركوب لأنه يبعث على السكون ونفسى ثائرة ، والمشى فى شدة القيظ ظهرا أنسب لها وأكثر اتفاقا لما هى فيه من نشاط وقوة - اذا ذكرت الآن كلامه لم أجده ذا قيمة ، وكثير من الناس يتكلمونه ويتكلمون خيرا منه وأسمى وأعمق ، ولكن أحدا منهم ليس له هذا الاشعاع ولا قوته وعظمته . وحدثنى من أثق به أن الأستاذ جمال الدين الافغانى كان يرتطن عجمة ، ولم يكن فصيح اللسان ولا سلس القول ، ولكن تجلس معه فيشعلك نارا دونها فصاحة الفصيح وبلاغة البليغ ، لانها النفس مستودع كهربائى قوى يصعق أحيانا ، ويضىء أحيانا ، ويدفع للحركة أحيانا

والرجل العظيم ، أو الكاتب الكبير ، أو المؤلف القدير ، يخرج ما ينتجه كتلة من الأشعة من جنس نفسه . ألست تقرأ المقالة أو الكتاب فيشع عليك معانى مختلفة ، منها الهادىء الرزين ، ومنها القوى المتين ، منها المضحك ، ومنها المبكى . منها الذى يأخذ بيدك

فيحلق بك فى السماء ، ومنها مايدفعك الى الحضيض ، وآية هذا الاشعاع أنك تقرأ المقالة أو الكتاب فيبعث عندك من المعانى مالا تدل عليه الألفاظ، من طريق الحقيقة ولا المجاز ، بل مابين السطور يشع كالسطور نفسها ، أولست ترى مقالة الاشعاع فى باب العلوم أشعّت على معانى فى باب الادب ؟

ليسم هذا علماء النفس تداعى المعانى، أو ليسموه ايعازاً أو اقتراحاً أو ليسموه ماشاءوا ، فليست الا إشعاعات نفسية من جنس الاشعاعات التى يشعها الاشخاص فى كلامهم وحديثهم وحركاتهم فتلقف منها من المعانى مايقرب وما يبعد . وفى الأماكن كذلك أشعة مختلفة، فشارع عماد الدين يشع رغبة فى اللهو وميلا الى مسرات الحياة ، والمساجد تشع ميلا للعبادة وتمجيداً لله ، والبحر الجليل يشع عظمة وجلالا ، ونجوم السماء تشع حسناً وجمالا ، والبنك يشع حباً فى المال ، والجامعة تشع حباً فى العلم ، بل وكل بلد يشع نوعا من الاخلاق ، والا فلِمَ يذهب المصرى إلى انجلترا وقد اعتاد الفوضى فى حياته ومواعيده وصحوه ونومه ، فما هو الا أن يطأ أرضها حتى ينقلب خَلقاً آخر دقيقاً فى نظامه ، دقيقا فى معيشته ؟ ويذهب المصرى الى المانيا فيكون فى بيئة علمية فيشرب من مشربهم ويسير سيرتهم ، فاذا عاد هذا وذاك الى مصر عادا سيرتهما الاولى ، ما هو الا الجو النفسى تلقى فيه أشعة نفسية مختلفة الاثر ، مختلفة الالوان

ومن قوانين هذا الاشعاع النفسى أنه فى كثير من الاحيان يعتمد على الفاعل والقابل معاً ، واعتماده على القابل أبين فيه من الاشعاع الحسى ، فاللون الابيض أبيض عند كل الناس ، والأحمر أحمر عند كل الناس، الا من أصيب بعمى اللون ، وليس كذلك الاشعاع النفسى ، فالخطيب يخطب واشعاعه يختلف باختلاف السامعين ، والكلمة قد تهدى ضالا وقد تضل هادياً ، كما يقول المثل الانجليزى « إن الليل الذى يغمض عين الدجاج يفتح عين الخفاش » وهذا هو السبب فى أنك تستخف روح انسان وغيرك يستثقله ، وتُعجب بقول متحدث ومن بجانبك يستسخفه ، وتنفتح نفسك لكتاب وغيرك ينقبض منه ، ماهذا الا لأن الاشعاع الواحد يختلف باختلاف من وقع عليه الشعاع ، وإن هناك تفاعلا قوياً بين مصدر الاشعاع وقابله ، ومن أجل هذا قد ترى لصا فى مسجد وعابدا فى حانة .

وموسى الذى رباه جبريل كافر

وموسى الذى رباه فرعون مرسل

والأرض يمطرها السحاب، فمنها جنان ناضرة، ومنها صحراء مجدبة قاحلة ، والنار تضىء للسارى فيهتدى وللفراش فيحترق

لقد أثبت العلم الاشعاع اللاسلكى وأصبحنا نسمع الآن من الراديو أصوات الموسيقى فى أوربا ، وسنسمعها من أمريكا ، وسنسمعها من أنحاء العالم ، ومعنى هذا أن فى جو مصر تموجات من أوربا وأمريكا وأنحاء العالم ، واذا كان هذا فى المادة فاشعاع النفوس أبعد مدى ، وأنفذ شعاعا ، وأسرع سيرا . واذا كان فى حجرتى امواج هوائية من مناحى العالم يظهرها الراديو ، فان فى حجرتى ملايين واكثر من الملايين من اشعاعات نفسية تشع من السماء ومن الارض ومن النفوس البشرية ، ومما لا يعلمه الا الله .

وما الفكرة تصدر عنى ، ولا الالهام ألُهم به فلست أعرف له مصدرا وليس يخضع لقوانين المنطق ولا نظريات الاستنتاج، ولا الظواهر النفسية تتعاقب على فلا اعرف تعليلها من انقباض وانبساط ، وسمو وانحطاط ، وكدورة وصفاء ، وظلمة وضياء الا أثر من هذا الاشعاع

ان وراء هذا العالم المادى عالما روحانيا نفسيا أسنى وأبهى ، واذا كان للاجسام والحواس جو يحيط بها قد أمتلأ أشعة من نجوم وكواكب وشموع ومصابيح ، فللنفس جو يحيط بها اشتبكت فيه أشعة نفسية لاعداد لها . واذا كان للعين أفق يختلف باختلاف النظر قصرا وطولا ، فللنفوس أفق يختلف كذلك ، فبعضها ينفذ الى ماوراء الحجب ويستمد منه مايستخرج العجب ، وبعضها قصير المدى قريب المتناول . ولئن كانت قوانين الاشعاع الحسى لما يستكشف منها الا قليل ، فقوانين الاشعاع النفسى أشد تعقدا وأكثر التواء وغموضا ، والعاكفون على دراستها ، والموفقون لاستكشاف بعضها أقل وأندر . خضع كل الناس للاشعاع المادى ، وخضع كل الناس للاشعاع النفسى ، ولكن آمن بالأول كل الناس ، وما آمن بالثانى الا قليل .

هل تنبعث من عالم النفس شرارة قوية تضىء جوانب النفوس؟ وهل يبعث العالم النفسى موجة قوية تعم العالم وتهزه هزة عنيفة فينتبه من سباته ، ويهب علماؤه لتنظيم الحياة الروحية كما نظموا الحياة المادية ، ويتخصص علماء النفس لاستكشاف قوانين الاشعاع النفسى كما استكشف الماديون قوانين الاشعاع الحسى ، ثم ينتفعون وينفعون الناس كما انتفعوا بقوانين الضوء وما اليه، واذ ذاك يكون الناس أسعد حالا وأهدأ بالا وأكثر اطمئنانا ؟ من يدرى !!!